

التوسع الحضاري المصري في بلاد النوبة

✍ أ. بومدين بن موفق

أستاذ مساعد أ جامعة الجزائر-2-

إن الموقع الجغرافي الممتاز والظروف الداخلية المناسبة لسكان مصر في القدم قد دفعت بهم إلى بروز حضارة، التي انعكست على تغيير نمط حياتهم بالانتقال بها من العصور الحجرية إلى عصر الأكل أكثر تقدما، وذلك في زمن كان فيه معظم جيرانهم في الجنوب (بلاد النوبة)، ولم يستقر بهم المقام لإظهار أول إنتاجهم الحضاري بعد. حيث أخذت المراكز الحضارية تنتشر في كل ربوع مصر وخاصة في الدلتا الشيء الذي لا يختلف فيه المؤرخون أن سكان شمال مصر سبقوا أهل الجنوب في تكوين حضارتهم، بل أنهم سبقوهم أيضا في تكوين الدولة بما يعني ابتكار كل المقومات الحضارية، والأمر الذي نريد أن نخرج به من وراء ذلك هو انتشار العناصر الحضارة من الحضارة المصرية إلى بلاد النوبة جنوبا.

وتعود العلاقات الحضارية بين الدولة المصرية وبلاد النوبة إلى بداية عهد الأسرات، وتوحيد البلاد على يد ملوك الأسرة الأولى (3100-2890 ق.م)⁽¹⁾، حيث عثرت التنقيبات الأثرية على مقابر بالمنطقة الشمالية من بلاد النوبة السفلى، التي تشير إلى التشابه الحضاري البارز لعصر ما قبل الأسرات الأعلى في مصر (4000-5500 ق.م)، وهذه الحضارة التي بقيت في النوبة حتى أواخر عصر الأسرة الثانية (2686 ق.م) تعرف بين علماء الآثار "بالمجموعة الأولى" أو بالمجموعة أ"، ومن المهم أن نعرف أنه قبيل فترة بداية الأسرات في مصر (3500-3100 ق.م) كان الاتصال الحضاري لهذه المجموعة بشمال وادي النيل لم يظهر إلا عن طريق بعض المقابر المنتشرة في المنطقة الجنوبية للجندل الثاني، ورغم قلة سكان هذه المجموعة فقد ازداد عددهم، ودخلت حضارة جديدة، ويحتمل تسرب أعداد من سكان ما قبل الأسرات منسحبين تحت ضغط الشمال نتيجة غزو المتقدمين من حكام مصر⁽²⁾.

وللإشارة إلى العلاقة الحضارية مع هذه المجموعة فلا بد من التطرق إلى المقابر، وطريقة الدفن لهذه الفئة باعتبارها النقطة الوحيدة التي توضح ذلك التبادل الحضاري، ويرى إمري في هذا الصدد بأن قبائل "المجموعة الأولى" اتبعت صنفين من المقابر لدفن، فالصنف

الأول عبارة عن حفرة شبه مستديرة، تصل إلى عمق ثمانين سنتمتر، أما الصنف الآخر وهو قليل الانتشار، فهو "حفرة بيضاوية" بها حجرة جانبية منخفضة في أحد جوانبها، ويصل عمقها إلى حوالي مئة وثلاثين سنتمتر. وكانت الجثة توضع على شكل القرفصاء، على جانبها الأيمن، والرأس على الغرب، وكان يحيط بالجسد أشياء خاصة بالاستعمال اليومي كالأواني الفخارية، وحجارة لصحن الغلال من الممر والحجر الرملي، وأدوات من الخشب ومثقاب من النحاس، وكان الجسد يزين بنماذج بسيطة من الحلي مثل الأساور المصنوعة من القواقع والعقود المكونة من خرز العقيق⁽³⁾.

وفي عهد ملوك الأسرة الأولى تميزت العلاقات الفرعونية النوبية بشن حملات عسكرية توسعية لحدود الجنوبية لمصر، ويشير الباحث أحمد أمين إلى انتصار المصريين في الجنوب في عهد عصر "حور عجا" (3100 ق.م) أول ملوك الأسرة الأولى⁽⁴⁾. كما عثر على لوحة صخرية في "جبل الشيخ سليمان" جنوبي "بوهن" تسجل غزو الملك "جر" (3000 ق.م)، وتظهر اللوحة أسيرا جالسا ومربوطا في مقدمة سفينة من طراز عصر الأسرات في مصر، تختلف في شكلها عن مراكب ما قبل الأسرات، وأسفل السفينة أجساد أعداء غرقى، ونجد دائرتين بهما خيطان متقطعان يعلوهما نسر، يرمزان على مدن تم الاستيلاء عليها، وشكل أسير واقف ويداه مربوطتان من الخلف، وكذا اسم الملك "جر"⁽⁵⁾. وحسب هذه اللوحة فإنها ربما تشير إلى فرض السيادة المصرية على كامل المنطقة أو على الأقل حتى الجندل الثاني، وقد تكون مجرد لوحة فخية فنية تشير إلى انتصار مصري على هذه المنطقة في إحدى حملاتها العسكرية. كما هناك قطع من أوان حجرية من هذا العصر عثر عليها في "بوهن". تعود إلى عصر الأسرة الأولى تشير إلى نفوذ المصريين جنوبا تؤكد الحملات التوسعية التي قام بها.

والجدير بالذكر أن آخر الدراسات على منطقة بوهن قد أشارت على وجود مدينة سكنية كبيرة محصنة خصصت للعمال المصريين و معهم عدد قليل من أهل المنطقة، ينتمون إلى مجموعة حضارية في بوهن وكانوا يعملون في استخراج معدن النحاس، ويشير هذا المجمع الصناعي في بلاد النوبة إلى تطوير مجتمع المنطقة⁽⁶⁾، ويبدو أن الانتهاء المفاجئ لحضارة المجموعة الأولى قد حدث عند غزو النوبة في عصر الملك "حع سخم"⁽⁷⁾ (2686 ق.م) في عصر الأسرة الثانية، والذي صور انتصاره على أهل "تاسي" على لوح آخر عثر عليه في "نخن"⁽⁸⁾.

وقد حدث إخضاع مصري لبلاد النوبة في عصر الملك "سنفور" (2613-2589 ق.م) مؤسس الأسرة الرابعة، والذي قام بحملة عسكرية، خرج منها بأسر سبعة آلاف منهم وإحضار مائتي ألف رأس من الماشية.

وفي عصر الأسرة الخامسة سجلت أسماء الملوك "سا حورع" (2475-2487 ق.م) و"جد كاورع" (2375-2414 ق.م) في توماس بين أسوان، و"وادي حلفا"، ويعتقد أنهما كانا يستغلان محاجر الديوريت هناك. وفي هذه الفترة أصبحت العلاقات مع النوبة السفلى كثيرًا، وبدؤوا ينظرون إليها كجزء متمم لحدودهم الجنوبية، وبدؤوا يعملون على تأمين المواصلات إليها، والحد من شغب قبائلها. وازداد اهتمام المصريين بعلاقتهم مع أهل النوبة منذ أواخر الأسرة الخامسة بظهور منصب أطلق عليه حاكم الجنوب بأن يكون محل خبير بالشؤون التجارية ويحسن التواصل مع القبائل المقيمة بالجنوب⁽⁹⁾، ولاشك في أن إنشاء منصب حاكم الجنوب بداية وضع الأسس للدبلوماسية المصرية. وفي عصر الأسرة السادسة زار الملك "مر إن رع" (2287-2278 ق.م) منطقة "إلفنتين" وتقبل ولاء رؤساء "مدجا" و"إرثت" و"واواي"⁽¹⁰⁾.

ولعل أن أهل النوبة قد استغلوا فرصة انتقال الحكم في مصر من أسرة إلى أخرى، وحاولوا الاستيلاء على المؤسسات المصرية التي أقيمت قبل ذلك للمساهمة في استمرار العمل في المناجم، وفي سهولة انتقال التجارة بين مصر والنوبة، وهكذا استمر الطريق الرئيسي لانتقال الحضارة من الشمال إلى الجنوب مفتوحا طوال أيام الدولة القديمة.

وفي عصر الانتقال الأول (2181-2055 ق.م) نشب عن سقوط الإدارة المركزية بمصر في هذه الفترة إلى انتشار الثورة من "منف" إلى الأقاليم، وتدهورت السيادة المصرية في النوبة. وقد ساهم في ذلك بروز المجموعة الحضارية الثالثة بالنوبة (تعرف بالمجموعة س)، والتي انتشرت في المنطقة من "الكوبانية بحري" (مركز دراو- محافظة أسوان) حتى "بطن الحجر" عند "عكاشة"⁽¹¹⁾.

تشير بعض الدراسات إلى أن السيادة المصرية على بلاد النوبة السفلى لم تستمر بعد وفاة "بي الثاني"⁽¹²⁾ (2278-2184 ق.م)، إذ تراجعت هيبة الحكم المصري بعد وفاته، مما انجر على ذلك فوضى عارمة في البلاد في عصر الانتقال الأول، مما أدى إلى فقدان الممتلكات التي كانت مصر قد وضعت يدها عليها في الجنوب. وفي أواخر عصر الانتقال الأول هناك تلميحات متعددة على إرسال حملات مصرية متوالية لإعادة استرجاع سيادتها على منطقة النوبة⁽¹³⁾.

ويشير بعض الباحثين بأن عودة السيادة المصرية على شعوب بلاد النوبة خلال الدولة الوسطى كانت في عهد الملك أمنمحات الأول (1985-1955 ق.م)، حيث عثر على نقوش صخرية ببلاد بالنوبة السفلى عند "واد الجرجاوي" بالقرب من "كورسكور"، والمؤرخة في

العام التاسع والعشرين من حكمه، تشير إلى قيام الملك بإرسال حملة مصرية إلى النوبة السفلى "واوات".

وحسب ما أقره "أمنمحات" نفسه في تعاليمه لولده وولى عهده "سنوسرت الأول" (1965-1920 ق.م)، من أنه أخضع أهل "واوات" و "الميجا"، ويقد "البجا". ولعل في تسجيل اسم الملك "أمنمحات الأول" في محاجر الديوريت بمنطقة "أبي سمبل" دليلاً على نشاط بعثات المحاجر في أواخر أيامه⁽¹⁴⁾. ربما كان الهدف من هذه الحملة العسكرية هو استرجاع امتداد الحدود المصرية على المنطقة، وكما توضح أيضاً بأن النفوذ المصري اقتصر فقط على شمال بلاد النوبة .

واتبع "سنوسرت الأول" سياسة والده تجاه منطقة النوبة، حيث صار بنفسه مستهدفاً لإرساء قواعد ثابتة للحكم المصري فيها، وشيد بها ما لا يقل عن ثلاث قلاع⁽¹⁵⁾. وقد سجل الملك "سنوسرت الأول" أخبار انتصاراته بالنوبة على لوح في "بوهن" في العام الثامن من حكمه، وذكر فيه أسماء عشرة أقاليم تقع إلى الجنوب من مصر، خضعت كلها لسلطانه⁽¹⁶⁾. وهناك وضع الملك سنوسرت الثالث (1874-1855 ق.م) لوحات الحدود يعلن فيها السماح لأهل الجنوب بالمرور لغرض التجارة، وكما كان له نشاط مدني وعسكري واسع بالنوبة، وقام بنفسه بقيادة عدة حملات إليها على مدى عهده أشهرها حملات الأعوام الثامن والعاشر والسادس عشر من حكمه، وأقام ألواح الحدود عند حصن "سمنة" بمنطقة "الجنبدل الثاني".

وقد وصلت مكانة الملك بالنوبة إلى درجة تقديسه بها بعد وفاته، فعندما أعاد "تحتمس الثالث" (1479-1425 ق.م) بناء معبد سلفه في "سمنة"، بعد مضي ما يقرب من ثلاثمائة وسبعين عامًا، جعل من "سنوسرت الثالث" (1874-1855 ق.م) ثالث آلهة الحدود التي أسسها كل من "ددون" معبود "سمنة" و "خنون" معبود "إلفنتين" و "سنوسرت الثالث"⁽¹⁷⁾.

يبدو أن مصر استمرت في حكمها للجنوب حتى "سمنة" عند "الجنبدل الثاني" على الأقل حيث عثر هناك على نقش صخري يحمل اسم الملك "أمنمحاتسوبكحتب" (سخم رع خوتوي) مؤسس الأسرة الثالثة عشرة إلى جوار اسم سلفه "أمنمحات الثالث" (1855-1808 ق.م)، وفي العام الرابع من حكمه قام "أمنمحاتسوبكحتب" بتسجيل ارتفاع الفيضان عند قياس "سمنة" و "قمة" عند الجنبدل الثاني.

ومن عصر الملك "نفرحتب الأول" عثر في النوبة السفلى على مقابر بالقرب من المدن المحصنة كما أن قلاع وحصون النوبة استمرت في تلقي الإمدادات المصرية، وأما في "كرما" فقد اتصفت

الحضارة التي سادت تلك المنطقة بالثراء البالغ، كنتيجة للازدهار الذي تحقق من التبادل التجاري مع مصر. وفي عصر الدولة الوسطى (1795-2055 ق.م) وصلت حدود مصر الجنوبية حتى "الجنبدل الثاني" عند "إيكن" (ميرجيسا) حيث شيد بها حصنا.

وفي الوقت الذي كانت فيه "حضارة المجموعة الثالثة"⁽¹⁸⁾ خاضعة للحضارة المصرية في عصر الدولة الوسطى، فقد كانت "حضارة كرما"⁽¹⁹⁾ في معظم الأحيان مستمرة في التطور بلا انقطاع، واتخذت شكلاً سياسياً أكثر تحديداً، وعرفت باسم "مملكة كوش"، وتؤكد الوثائق أن "كوش" كلها قد أصبحت دولة موحدة مستقلة، خلال قرن من الزمن تقريباً بين سقوط الدولة الوسطى وقيام الدولة الحديثة (1550-1650 ق.م).⁽²⁰⁾

لعل قيام مملكة كوش في بلا النوبة تزامنت مع دخول الهكسوس لمصر (1542-1650 ق.م) أثناء عصر الانتقال الثاني (1550-1650 ق.م)، وربما يكون انفصال قبائل "كوش" في تلك الفترة يفسر لنا سبب تشتت حضارة "كرما" في منطقة "المجموعة الثالثة" في آخر عهدها، وهذا مما يدل على سقوط الموانع السياسية بين أصحاب حضارة "كرما"، وأهل الجنبدل الثالث. والضعف السياسي الذي شهدته مصر نتيجة الحكم الأجنبي.

نظراً لتواصل الاجتماعي الذي كان يربط بين المجتمع المصري، والمجتمع النوبي خلال فترة العصر الانتقالي الثاني، الأمر الذي شجع وزاد من نشاط والعلاقات التجارية، وحتى الثقافية بينهما، كما تحول الطريق البري النوبي إلى نقطة اتصال، وامتزاج المجتمعات الإفريقية مع المجتمع المصري، الذي ما نشب عليه تبادل حضاري في المنطقة.⁽²¹⁾

ومن المتفق عليه بأنه في إحدى الفترات كنا هناك حلف بين ملوك الهكسوس ورؤساء قبائل "كوش" واضعين أمراء "طيبة" وأتباعهم بين نارين، ومن ثم فقد اضطروهم إلى أن يقفوا في حالة دفاع لعدة سنين، وبقي الحال على هذا المنوال حتى قامت الأسرة السابعة عشر (1550-1650 ق.م) وبدأت الروح المصرية تقوى بالتدريج، حتى قامت حروب التحرير أيام "كامس" (1550-1555 ق.م) آخر ملوك الأسرة.⁽²²⁾

وأثناء قيامه بشن حملاته على الهكسوس، وقعت في يد "كامس" رسالة موجهة من قائدهم في "أواريس" إلى ملك "كوش"، وتمكن رجاله من ضبط الرسول الذي يحملها أثناء عبوره الصحراء فيقول عنها "كامس": "...قبضت على رسول له، بعيداً عن الواحة، جنوباً نحو "كوش" معه رسالة مكتوبة من قائد "أواريس" يقول فيها: "أنا عا أوسرع" ابن رع "أبيي" أحبي ابن حاكم "كوش" لماذا أصبحت قائداً دون علي، ألم تسمع بالذي فعلته مصر ضدي

إن القائد المصري كامس طردني من أرضي، ولم أصل إليه بعد، وبعد كل ما فعله ضدك فقد اختارك تدمير الأرضين، أرضي وأرضك وتخريهما. أبحر حالا إلى الشمال، ولا تكن هائبا أنظر إنه هنا معي لن أدعه يرحل قبل أن يصل حينئذ سنقسم مدن مصر هذه بيننا..⁽²³⁾.

كما تجدر الإشارة أيضا إلى نقش صخري عثر عليه في أرمنة الشرق يسجل أسماء، وأرقام الملكين كامس وأحمس ويشير النص إلى أن كامس قد فرض سيطرته على مناطق النوبة السفلى، ويضاف إلى ذلك أنه قد وضع نواة الإدارة المصرية بإقليم النوبة، التي ازدهرت في الفترة التالية مباشرة خلال عصر الدولة الحديثة (1069-1550 ق.م)⁽²⁴⁾.

وبعد أن انتهى أحمس الأول من حروبه ضد الهكسوس حتى استولى على شاروحي (جنوبي غزة)، وأمن الحدود الشرقية لمصر، ثم توجه إلى بلاد النوبة⁽²⁵⁾، ويبدو أن بعض القبائل النوبية بالمنطقة، قد أغاروا على الممتلكات المصرية، وخرّبوا حصون النوبة، وهذا ما يعتبر تمرد عن السيادة المصرية مستغلين فرصة ضعف الرقابة عليهم، وانشغال الجيش المصري بحروبه ضد الهكسوس، مما أجبر أحمس الأول على إرسال ثلاث حملات عسكرية لبلاد النوبة من أجل استرجاع ممتلكات الدولة المصرية و حماية مصالحها هناك. وقد تمكن "أحمس الأول" في حملته التي ذكرناه سابقا من تحقيق النصر، ويبدو أن العناصر المناوئة للسيادة المصرية في النوبة قد انتهزت فرصة غياب الفرعون عنها بعد الحملة فقامت بعصيان مسلح تحت قيادة من يدعى "تيتيان" مما اضطر الفرعون للقيام بحملتين للقضاء على التمرد. وربما ساعده في نجاحه:

1- ضعف الرغبة عند النوبيين في مقاومة تغيير السيادة من أمير "كوش" إلى فرعون مصر.

2- إعادة توطيد الحكم المصري في النوبة إنما كان في الواقع انضباطا سياسيا أكثر منه خضوعا عسكريا، ذلك لأن عملية "تمصير النوبة" التي بدأت منذ أيام الدولة الوسطى قد بدأت نتائجها في الظهور⁽²⁶⁾.

وعلي ما يبدو فإن الوضع بالنوبة سرعان ما شهد اضطرابات و عصيان من أهالي كوش، مما اضطر بالقيادة المصرية بتوجيه حملة عسكرية أخرى تحت قيادة أحمس ابن نخت، الذي تمكن من استرجاع هيبة السلطة المصرية بالمنطقة⁽²⁷⁾. كما نجح من خلال هذه الحملة من اسربضع الثائرين بالمنطقة⁽²⁸⁾.

وقد عثر في جزيرة "صاي" التي تبعد بحوالي مئة وتسعين كيلومتراً جنوبي بوهن، على بقايا معبد شيده أمنحتب الأول، وكان من بين أطلاله لوحة نقشت عليها الألقاب الملكية الكاملة للفرعون نفسه، كما عثر بنفس المكان على تمثالين ولوحين صغيرين، كتب عليهما اسمه، مما يدل أن جزيرة "صاي" قد أصبحت تمثل الحد الجنوبي للنفوذ المصري في أيام "أمنحتب الأول"⁽²⁹⁾.

فقد شيد "تحتمس الأول" سلسلة من الحصون في "تومبوس" وعلى جزيرة صاي، ولا شك أنه في أواخر عصره كانت النوبة كلها، و"دنقلة" أيضاً في يد قوية وقد أعاد الفرعون نفسه تحت إشراف حاكم النوبة وقتها توري.

ويشير المؤرخ إمري أنه قد أختار "بوهن" لتكون مركزاً للإدارة في الجنوب، وأعيد بناء جدران حصونها وترميمها وتقويتها. أما السور السفلى والخندق فقد تم ردمهما وتغطيتهما بطريق معبد من اللبن يلتف حول البناء كله حتى أصبحت على شكل قلعة في وسط حصون جديدة شيدت الجدران اثني عشر متراً وسمكها خمسة أمتار ويتخللها أبراج مستطيلة في الواجهة الخارجية وكان المسقط الأفقي لهذه الحصون على عكس حصن الدولة الوسطى، حيث كان شكله العام غير مستقيم، وله زوايا واسعة أكبرها في الوسط، تقريباً في الناحية القريبة التي تواجه الصحراء. وداخل هذه الزوايا بوابة كبيرة ذات ممر منحوت في الصخر، يعتبر المدخل الرئيسي الحصن.

أما عن الحصون الأخرى في "النوبة السفلى" مثل "كوبان" و"إيكور" و"عنيبة"، فقد تم تقويتها، بينما ظلت الحصون الأخرى الواقعة جنوبي "الجنبدل الثاني" في منطقة "بطن الحجر" (على بعد مئة وأربعة وأربعين كيلومتراً جنوبي "وادي حلفا") كما هي مهجورة، حيث كان باهتمام الفرعون.

الملاحظ أنه في عصر "تحتمس الأول" كانت مصر تحوز على جيش منظم له قيادة محكمة، لم يشهدها الجيش المصري من قبل، وربما هذا راجع إلى حروب التحرير ضد الهكسوس، الأمر الذي دفع المصريين إلى أنه من الضروري إيجاد جيش محترف ومنظم، وأن مصر عليها أن تتجنب الاعتماد على فرق نصف مدربة، يقودها أشراف محليون. لأن المرحلة قد تغيرت وظروفها أكثر تطوراً مما كانت عليه من قبل.

مما لا شك فيه تمكن إدارة الجيش من السيطرة على بلاد صعبة مثل بلاد النوبة، وصعوبة تنقل الكتائب العسكرية بين طرقها إلى المراكز العسكرية أو مناطق خوض المعارك،

هذا إلى جانب ازدياد الجالية المصرية المرافقة للجيش و القوافل التجارية، سرعان ما كان له أثره على معتقدات وأسلوب حياة أهل المنطقة المحليين⁽³⁰⁾.

وهكذا امتازت بلاد النوبة في عصر "تحتمس الثالث" بالهدوء، ومع أن الفرعون قد قام بحملة إليها في آخر سنين حكمه، غير أنها كانت حملة استعراضية لقوته العسكرية، ذلك لأن شهرة انتصاراته في سوريا كانت كافية لردع أي فكرة ثورية في "كوش"⁽³¹⁾.

فمن خلال النصوص القديمة، فقد تمتعت النوبة على أيام "تحتمس الثالث" بالأمان والهدوء، وأدار أمورها حاكم النوبة "نحي" بالحكمة"، واهتم كثيرا بجمع الجزية⁽³²⁾، والتي تكاد تكون مقصورة على الذهب، الذي بلغ ثمانية مئة واثنان وعشرون ألف دينار⁽³³⁾، وتشير حوليات "تحتمس الثالث" التي نقشت على جدران معابد "آمون" بالكرنك، إلى أن "اوات" قد دفعت الجزية عن ثمانية أعوام⁽³⁴⁾، بينما دفعت "كوش" عن خمسة، وهو ما يشير إلى أن جزية(ضرائب) النوبة كانت ترد بانتظام إلى الخزنة المصرية.

وأثناء حكم "تحتمس الثالث" وصلت إدارة النوبة التي كانت في يد الحاكم نحي إلى أعلى المستويات، ومن الواضح أن العمل في مناجم الذهب والطرق التجارية قد تمتعت بالحماية من غارات البدو⁽³⁵⁾.

ثم كانت سياسة الفرعون الناجحة التي تمثلت في أخذ بعض من أبناء الأمراء وحكام البلاد الأجنبية بهدف تنشئتهم على الطريقة المصرية مع أبناء كبار رجال الدولة في مصر، حتى يشب على حب مصر و صداقتها وينالوا قسطا من الثقافة المصرية، ويمارسوا الحياة المصرية في القصور الملكية التي تحبب لهم الإقبال على الحياة في مصر وتتيح لهم فهم حضارتها الرفيعة المترفة وتسهل على الفرعون أن يجعل فيهم حكاما في الأقاليم الشرقية والجنوبية مدركين قيمة الوحدة في مصر وأقاليم الشرق القديم في غربي آسيا وفي بلاد النوبة.

ومن هنا فقد أنشأ الفرعون في طيبة، مدرسة يتعلم فيها ولي العهد مع أبناء كبار رجال الدولة، إضافة إلى أمراء الآسيويين والنوبيين الذين يقاربونهم في السن، لينشئوا على المودة والصداقة والارتباط بولي العهد أملا أن يخدموه في مستقبل الأيام خدمة الصديق لصديقه، وهي حسب اعتقادي أفضل بكثير من خدمة العبد لسيده⁽³⁶⁾. وكان أغلب الأمراء النوبيين الصغار أعضاء في هيئة العسكرية بالقصر الملكي⁽³⁷⁾، وكانوا غالبا ما يساعدون "نائب الملك في كوش" في التسيير، ومنهم من كان يفضل العمل كضابط في جيش الفرعون⁽³⁸⁾.

ومع مطلع حكم ملوك الأسرة التاسعة عشر كانت الحدود الإمبراطورية المصرية في الجنوب تتجاوز منطقة أسوان ولم يبق الكثير عن شمال الخرطوم وهي المنطقة التي تسمى لدى الباحثين بمنطقة النوبة السفلى⁽³⁹⁾، وكذلك ضمت المنطقة الواقعة بين الجندل الثاني والثالث بالنوبة العليا وهي مكرمملكة كوش⁽⁴⁰⁾.

أعتقد أن هدوء الأحوال بالنوبة في هذه الحقبة التاريخية يمكن أن يكون مصدره نابعا من إحدى أسباب ثلاثة :

فمن ناحية يمكننا أن نتوقعها نتيجة الرهبة، وخشية من بطش الجيش الفرعوني الذي كان وقتها يخضع كلا من فلسطين وكنعان⁽⁴¹⁾، ويحارب الحيثيين في قادش، وكان أيضا قد انتصر على القبائل الآرية التي جاءت من جنوب أوروبا لتستقر في ليبيا، وتسقلت إلى واحات الصحراء الغربية بمصر، وتغلب عليهم الفرعون بسهولة. وهكذا فربما لم يجرؤ أحد من النوبيين على إثارة المتاعب أمام الفرعون، خشية بطشه وانتقامه.

ومن ناحية ثانية فقد تكون السياسة الناجحة التي اتبعها فراعنة الدولة الحديثة منذ مطلع عصر الأسرة الثامنة عشرة نحو تمصير النوبة، قد أتت أكلها في هذه الحقبة، منعكسة على سلوك النوبيين الذين تغيرت نظرتهم نحو النفوذ المصري على أراضيهم، واصحبوا قانعين بحياتهم الجديدة، و غير مثيرين للمتاعب كما كان من قبل، وخاصة في أوقات خلو العرش المصري نتيجة لتعاقب الملوك على العرش عقب وفاة الملك الحاكم .

أما من ناحية ثالثة، فربما كانت الإدارة المصرية في الجنوب على رأسها نائب الملك في كوش على درجة كبيرة من الكفاءة للسيطرة على الأمور بدون الحاجة طلب إغاثة عسكرية من الفرعون، وعلى أية حال، فقد كان يحكم النوبة وقتذاك موظف كفؤ هو امن -ام- أوبت نو الذي حمل في حياته عددا من الألقاب المميزة وتقلد وظائف حيوية في الدولة .

ومن الناحية المعمارية فقد اشتهر الفراعنة باهتمامهم بتشيد المعابد والمنشآت المعمارية، ومن أشهرها مدينة عمارة غرب⁽⁴²⁾ التي أصبحت فيما بعد مركزا للحكومة في كوش ومقرا لنائب الملك، وكذا بإرسال البعثات التعدينية إلى مناجم الذهب في النوبة السفلى⁽⁴³⁾ . والجدير بالذكر أن بعض أنشطة العسكرية للملوك الدولة الحديثة على بلاد النوبة كانت لتأمين مناجم الذهب وغيرها من مصادرها الثروات الطبيعية التي كان لها دور في انتعاش الاقتصاد في ذلك العصر.

ونستنتج مما سبق مدى إصرار ملوك مصر على إخضاع ودمج بلاد النوبة مع أقاليم مصر، سالكة منهجا استيطاني طوال فترة الدويلات أو على الأقل منذ الدولة الوسطى، وذلك بشن حملات عسكرية توسعية، وأخرى تأديبية قام بها ملوك الدولة القديمة والوسطى،

إلا انه في عصر الدولة الحديثة تأكد لسانسة مصر مدى الخطر الذي تشكله بلاد النوبة لهم، ومن هنا بدأ التفكير جديا في ضم المنطقة بالملكة المصرية بأسلوب مغاير على العمل العسكري وذلك بانتهاج الطرق الثقافية وإقامة مناطق نفوذ مصرية بالمستوطنات وكذا بناء مؤسسات متنوعة في المناطق الحيوية في كل أجزاء بلاد النوبة والسعي وراء دمج المجتمع النوبي وتمصيره، كما نجحت الإدارة المصرية في توطيد سلطتها في بلاد النوبة، بتقسيم بلاد النوبة إلى مقاطعات تحت قيادة حكام موالين للحكومة المصرية وسياستها، ولتولي مثل هذه المناصب عملت الإدارة المصرية على تعليم وترسيخ الثقافة المصرية لأبناء الأمراء النوبيين، كما كانت وظيفة حاكم النوبة الذي لقب ابن الملك المشرف على الأراضي الجنوبية مستمرة تحت اسمها الجديد ابن املك في كوش، وتشجيع الحركة التجارية بين المجتمعين بتأميم الطرق التجارية الرابطة بين الشمال والجنوب، وبالفعل نجحت السياسة المصرية في ذلك إلى حد بعيد وصل إلى درجة أطلق عليها تمصير النوبة وهو الأمر الذي أفتق عليه الباحثين .

الهوامش:

- (1) - محمد إبراهيم بكر: تاريخ السودان القديم، القاهرة 1983، ص 25-26 .
- (2) - وولتر إمري: المرجع السابق، ص 127 .
- (3) - نفس المرجع، ص 127-128 .
- (4) - أحمد أمين سليم وسوزان عباس عبد اللطيف: مصر منذ التأسيس وحتى بداية عصر الدولة الحديثة، الإسكندرية 2004، ص 89 .
- (5) - Hintze, F. and Hintze, U., Civilisation of the Old sudan : Kermakush and Christian Nubia, Leipzig 1968 , p.43
- (6) - محمد إبراهيم بكر: صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم، ص 161 .
- (7) - يرى العالمان "أركل وإمري" أن هذا الأمر قد حدث في عصر الملك "خعسخموي" وليس في عصر "خع سخم"
- (8) - "نخن" أو "مخن" هو الاسم القديم لعاصمة مصر العليا فيما قبل توحيد القطرين، وقد ترجم العالم "زينه" اسمها بمعنى "الحصن" ترجمها "كيس" بمعنى "طفلة الرب"، وسمّاها الإغريق "هيراكوينوليس" بمعنى "مدينة الصقر" (حور). ويرجع تاريخ المدينة إلى عصور ما قبل الأسرات. تقع حاليا بمدينة (البصيلة- محافظة أسوان) على مبعده 17 كم شمالي إدفو، وتقابلها على الضفة الشرقية للنيل مدينة نخب (الكاب).
- (9) - محمد إبراهيم بكر: المرجع السابق، ص 163 .
- (10) - Arkell, A.J., Op. Cit, p.42
- (11) - تقع عكاشة على بعد 128 كيلومترا جنوبي "وادي حلفا"

(12) - كان للملك "بي الثاني" سياسة ناجحة في الجنوب، ويعزى جزء كبير من نجاحه هذا لتعاون حكام الجنوب معه عامة، وحكام إقليم "أسوان" على وجه الخصوص، ولا سيما "حقا- إيب"، وهو أمر يتفق والنسق العام لطبيعة العلاقة بين الملك وحكام الأقاليم آنذاك. راجع: حسن محمد محي الدين السعدي: في تاريخ مصر في العصر الفرعوني، ج1، الإسكندرية 2005، ص205.

(13) - Arkell, A.J., OP. Cit, p.55

(14) - أمل محمد بيومي مهران: "مصر في عصر أمتنحات الأول (1955-1985 ق.م)، دراسة تاريخية أثرية لغوية"، رسالة ماجستير، كلية الآداب-جامعة الإسكندرية 1994، ص142-146.

(15) - محمد بيومي مهران: تاريخ السودان القديم، الإسكندرية 1994، ص219.

(16) - Adams, w.y., Nubia, Corridor to Africa, princeton 1984, p.157-160.

(17) - إبراهيم محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص49.

(18) - ظهرت المجموعة الثالثة التي تعرف بالمجموعة س بالنوبة السفلى في المنطقة الواقعة من كبانية إلى الشمال من كوم أمبو وحتى فرس والفترة التي برزت فيها هذه المجموعة خلال سقوط الدولة القديمة.

(19) - ظهرت المجموعة الحضارية التي سميت حضارة كرما جنوب حضارة المجموعة الثالثة وأختر كرمه كعاصمة لها بالقرب من الشلال الثالث.

(20) - محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق، ص57-59.

(21) - نجم الدين محمد شريف: النوبة قبل نباتا (3100-750 ق.م)، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني، اليونيسكو 1985، ص244.

(22) - وولتر إمري: المرجع السابق، ص177.

(23) - نفسه، ص178

(24) - Trigger, B.G., Nubia under the Pharaohs, London 1976, p.104.

(25) - بلاد النوبة: أقام في الأراضي الواقعة جنوبي مصر قوم أقل حضارة، ولكنهم كانوا جنودا عظماء، كانوا أغنياء بالذهب والأنواع الجيدة من الأحجار والخشب الصلب والقطعان الكبيرة من الماشية، وكانت النوبة هي الممر الموصل إلى أواسط أفريقيا التي كان يأتي منها العاج والابنوس والحيوانات الغريبة والأقزام، كما ظلت بلاد النوبة محل طمع الفراعنة لاستغلال خيراتها، وتمكن الفراعنة من ضم إقليم الفنتين إلى مصر العليا وجعلت حدود المصرية عند الشلال الثاني في عهد الدولة القديمة، وفترة الدولة الوسطى ازداد توغل المصري في بلاد النوبة ليصل منطقة السمنة. كما عمل الفراعنة على تجنيد النوبيين في جيوشهم، وتعلم المجتمع النوبي الحضارة من خلال الوجود المصري بالمنطقة، واتخذوا لأنفسهم معتقدات دينية وعادات كتابية. جورج بوزنر وآخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة أمين سلامة وسيد توفيق، طبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996، ص341.

(26) - محمد بيومي مهران: تاريخ السودان القديم، الإسكندرية 1994، ص260-261.

(27) - أحمر ابن نخت: انضم إلى الجيش في عهد أحمر الأول وهو في الخامسة عشرة من عمره واشترك في حملة على سوريا، ثم خدم في عهد خلفاء أحمر أمنتحت الأول وتحتمس الأول والثاني وعاش حتى عصر تحتمس الثالث وكان قد بلغ من الكبر سنا، حيث كان موضع رعاية تحتمس الثالث حتى انتقل إلى الحياة الأخرى، وقد كان "أحمر هذا مساعداً للملك "أمنتحت الأول" كما كان قائداً للحملة على "بوهن" تحت قيادة الملك السابق "أحمر الأول" وقد وجه اسمه في النقوش التي عثر عليها في "سمنة" والمؤرخة بالعام السابع "أمنتحت الأول" وعثر على اسمه أيضاً

في أماكن أخرى من بلاد النوبة تدل على وجوده ونشاطه، منها نقش في جزيرة "أورونارتي" مؤرخ بالعام الثامن من حكم الملك نفسه، وكل هذه التواريخ تشير إلى السنوات التي كان يخدم فيها تحت إمرة "أمنحتب الأول" وتجدر الإشارة إلى أنه أحياناً تنقص التواريخ هذه النقوش فيصبح من الصعب تحديد إذا كان الأمر قد حدث في عهد "أمنحتب الأول" وقد كان أحسن بن نخت مربي الأميرة نفورع ابنة حتشبسوت قبل مربيها المشهور سنموت . أنظر: رمضان عبده السيد : تاريخ مصر القديمة، ج2، القاهرة، 1993، ص53.

(28) - James, T.G.H., "Egypt from the Expulsion of the hyksos to amenophisI", CAH, II, Part I. 1965, p.23.

(29) - Trigger, B.G., op.cit, p.108.

(30) - وولتر إمري: المرجع السابق ص187.

(31) - نفسه، ص192

(32) - نفسه، ص192.

(33) - دبن : وهو مقدر ميزان مصري قديم، و الدين الواحد يساوي واحد و تسعون غرام.

(34) - إمري : المرجع السابق، ص194.

(35) - Arkell, A.J., op.cit, p.88

وأيضاً: إمري: المرجع السابق، ص194. وأيضاً: محمد بيومي مهران: مصر، الجزء الثالث، الإسكندرية 1988، ص262.

(36) - Ibid., p.115. وأيضاً: محمد بيومي مهران: تاريخ السودان القديم، الإسكندرية 1994، ص274.

(37) - هيئة "كب" (kb): هي هيئة ما يزال أمرها غامضاً، وإن كانت على الأرجح هيئة عسكرية في نطاق القصر الملكي، وقد تم تشكيلها في عصر الدولة الحديثة، وكان يربي فيها أبناء الأمراء النوبيين بوجه خاص.

(38) - نفس المرجع السابق، ص274-275.

(39) - محمد بيومي مهران : المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثاني، الإسكندرية 1999، ص30.

(40) - كنت. أ.كتشن : رمسيس الثاني، فرعون المجد والانتصار، ترجمة أحمد زهير أمين، مراجعة محمود ماهر طه، القاهرة 1997، ص14.

(41) - عبد العزيز صلاح : الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، الجزء الأول، القاهرة 1987، ص228.

أنظر أحمد فخري : مصر الفرعونية، القاهرة 1981، ص340-341.

(42) - عثر على الآثار كثيرة تحمل اسمه في النوبة السفلى وبخاصة في عمارة غرب على مبعده 180 كيلومتر جنوبي وادي حلفا حيث يعتقد أنه كان له دور كبير في تأسيس المدينة (عمار غرب).

(43) - ظلت مدينة عمار غرب مسكونة طيلة الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرون، كما أكدت الدراسات الأثرية أهمية موقعها الذي يشرف على الطريق الصحراوي من النيل إلى شمالي صاي . مح